الجامع الكبير في شبام كوكبان
من روائع الفن العماري العربي الاسلامي في اليمـــن

الدكتور غازي رجب محمد
كلية الآداب / جامعة بغـــداد

تقع مدينة شبام الاثرية الى الشمال الغربي من مدينة صنعاء ويشار اليها في المراجع التاريخية باسم « شبام اقيان » نسبة الى اقيان بن زرعة بن سبأ الاصغر ـ احد ملوك حمير ـ لتمييزها عن مدن اخرى لها نفس الاسم (١) . وقديما كان يطلق عليها اسم « يحبس » (٢) كما سميت بأسم « شبام كوكبان » نسبة الى مدينة كوكبان القابعة فوق جبل ذخار المطـــل عليها وفيها قصر مزين بزخارف مطعمة بالاحجار الثمينة التي تخطف الابصار ببريقها ولمعانها ليلا كالكوكب الدرى (٣) .

وقد اتخذت مدينة شبام عاصمة للدولة اليعفرية التي اسسها الامير يعفر بن عبد الرحمن بن كريب الحوالي بعد انتصاره في محاربة قواد الخلافة في بغداد واستقلاله فيها عن الدولة العباسية (٤) .

وقد اتسمت الدولة اليعفرية بميسم الثقافة والعلم والبناء والتعمير فشيدت المساجد التي اشتهرت بجمال بنائها وروعة زخارفها كالجامع الكبير في صنعاء

---

(١) الهمداني : الاكليل جـ ١٠ ص ٥١ حاشية ٣ ، ص ٩٦

(٢) نفس المصدر السابق جـ ١٠ ص ٩٦ ، ٢٣٢ ، الويسي : اليمن الكبرى ص ٦٤ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان مادة (شبام) ، الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ٢٣٣ ، الاكليل جـ ١٠ ص ٥١ حاشية ٣ ، الويسي : نفس المصدر ٦٤ ، ٦٥ .

(٤) الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ ، الاكليل جـ ١٠ ص ٥١ حنشية ٣ ، عمارة اليمني : تاريخ اليمن ص ٥٤ حاشية ٢ ، ص ٥٦ حاشية ، معجم البلدان مادة (شبام) .

والجامع الكبير في شبام كوكبان (١) . وعلى الرغم من اختفاء هذه الدولة من المسرح السياسي الا ان اثارها الباقية مازالت شامخة كالطود لتحدثنا اليوم عن الامجاد الغابرة والحضارة التليدة والفن الاصيل في كل من المسجدين المذكورين .

ويشير الحجرى (٢) الى ان الامير اسعد بن ابراهيم بن يعفر (ت ٣٣١ هـ ٩٤٢ م) (٣) هو باني هذا المسجد ولكننا ندرك من الروايات التاريخية ان هذا المسجد كان قد بنى قبل استقلال البعفريين عن جسم الدولة العباسية اوفي بداية تمتعهم بالاستقلال ورغم قلة الاخبار في المراجع التاريخية الا ان ابن رستة (٢٩٠ — ٣٠٠ هـ / ٩٠٣ — ٩١٣ م) قد اشار الى انه مسجد جامع كبير (٤) كما اشار اليه ابن حوقل (ت بعد ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م) ايضا (٥) .

ومن الحوادث المهمة في تأريخ هذا المسجد ومئذنته ان ابراهيم بن محمد بن يعفر بن عبد الرحيم قتل اباه محمد وعمه ابراهيم سنة ٢٦٩ هـ / ٨٨٢ م بأمر من جده بعد المغرب في صومعة هذا المسجد (٦) .

وتأثرت مساجد شبام في العصر الايوبي عندما استباحها الملك المعز اسماعيل بن طغتكين سنة ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م وحول مسجدها الجامع الى اسطبل للحيوانات عند محاصرته لمدينة كوكبان كما اتخذ من اخشابها ومن ابواب مساجدها زحافة لجيشه (٧) .

---

(١) ابن رستة : الا علا ق النفيسة ص ١١٣ ، ابن حوقل : صورة الا رض ص ٣٧ .

(٢) مساجد صنعاء ص ٢٧ .

(٣) يحي : غاية الا ماني ق ١ ص ٢١٩ .

(٤) الا علا ق ص ١١٣ .

(٥) صورة الا رض ص ٣٧ .

(٦) الا كليل ج ١٠ ص ١٧٩ حاشية ٢ ، اليماني : تاريخ اليمن ص ٣٤ ، العقيلي : المخلاف السليماني ج ١ ق ١ ص ١٤٩ . وقد اشار الى هذا يحي في حوادث سنة ٢٦٣ هـ / ٨٧٦ م في كتابه غاية الا ماني ق ١ ص ١٦٥ .

(٧) يحي : نفس المصدر ق ١ ص ٣٥٢ .

Lewcock and Smith, Art "Two Early Mosques in Yemen" p 117

وانظر مؤلف مجهول : تاريخ اليمن ص ٢ .

ورغم مااصاب المسجد من نكبات فقد بقيت من زخارفه وعمارته اجزاء كثيرة تشهد بالعناية الفائقة التي بذلها المزوقون العرب المسلمون في زينة هذا المسجد واحكام بنائه .

وقد اعيد استخدام كثير من مواد البناء القديمة في جدران واروقة المسجد نقلت اليه من احد القصور القديمة المجاورة للمسجد الذى مازالت اسسه موجودة حتى اليوم .

عمارة المسجد

ويقع المسجد في الوقت الحاضر غرب المدينة الحالية داخل الاسوار القديمة في مكان مرتفع عن الارض المحيطة به وهو مستطيل الشكل طول اضلاعه من الداخل : جدار القبلة ٨٠ ر٢٢ م والجدار الجنوبي ٢٨ ر٢٣ م والجدار الشرقي ١٣ ر٣٦ م اما الجدار الغربي فطوله ٨٠ ر٣٢ م . ويبدو ان اختلاف اطوال اضلاعه ناتج عن كثرة الترميمات التي نفذت فيه .

الجدران الخارجية وميزاتهـــا

وجدران المسجد مبنية بقطع منتظمة من الحجر الجيرى بارتفاع ٨ م تقريبا وهي سميكة صلدة عديمة النوافذ تبدو فيها التأثيرات الفنية القديمة واضحة جلية فقد اتبع البناء طريقة التدرج العمارى من اسفل الى اعلى كجامع صنعاء وهي من ميزات العمارة اليمنية الحميرية القديمة .

ويقع المدخل الرئيس للمسجد في الجدار الشرقي ويؤدى مباشرة الى الاسكوب الرابع في بيت الصلاة ويسبق هذا الباب باب صغير يؤدى مباشرة الى اسكوب المحراب واغلب الظن ان الامام كان يستخدمة بدلا عن الباب الذى يفتح عادة الى جانب المحراب حتى لايتخطى رقاب المصلين . ويتقدم المذخـــل الرئيس من ألخارج قبة قائمة على اربعة عقود حجرية لعلها اضيفت في عهد السيطـرة ألعثمانيـــــة .

وألقسم ألعلوى من ألجدران الخارجية مبني بالطابوق ومزين بشريط عريض من زخرفة مجذولة تدور حول ألجدران من جميع ألجهات اسفل ألشرافات المدرجة التي تتوج الجدران الاربعة . وفي ألقسم ألجنوبي من ألجدار ألشرقي باب ثالث يؤدي مباشرة الى المؤخرة في الاسكوب الاول منها المطل على الصحن ومن المؤخر باب كبير آخر في الجدار الجنوبي يؤدى الى مطاهير المسجد .

اما الجدار الغربي فقد فتح فيه بابان الاول – مسدود – في الجهة الشمالية في مكان يقابل المدخل الرئيس في الجدار الشرقي ويؤدى الى الاسكوب الرابع مباشرة في بيت الصلاة اما الباب الثاني فيؤدى الى الاسكوب الاول من المؤخرة ويقابل الباب الثاني في الجدار الشرقي ، ويؤدى من الجهة الثانية الى المطاهير ومرافق اخرى .

ويلاحظ في جدران هذا المسجد تشابها في السمك وطريقة البناء الا في القسم المحصور بين الباب الجنوبي والزاوية الجنوبية الغربية من المسجد حيث امتاز بتجاويف جدارية يرجح بناؤها لتوسيع الممر القائم امام البرك .

وهناك بروز قائم الزوايا في الجدار الشمالي من الجهة الخارجية خاص بحنية المنبر التي فتح في اعلاها شباك يسمح بمرور الهواء والضياء للامام اثناء القاء الخطبة .

الصحن والاروقة

اما داخل المسجد فيتكون من صحن مكشوف (شماسي) مستطيل الشكل تقريبا مساحته حوالي ١٤× ٥ر١٢ م مبلط بالواح حجرية تطل عليه اربعة اروقة كانت مفتوحة على الصحن بعقود مرتفعة اكبرها رواق القبلة . ويحيط الصحن في الوقت الحاضر جدار سميك سدت بوائكه المطلة على الصحن وفتحت فيه ابواب ونوافذ عليها ستائر جصية وقمريات رخامية لادخال الضياء الى الاروقة وقد رتبت هذه النوافذ بصورة زوجية يعلوها فتحة دائرية كانت كلها مغطاة بالرخام الشفاف (قماري) . وربما حدث هذا التغيير في عصر مبكر لعله القرن الثالث الهجري عندما سيطر اليعفريون على مدينة شبام .

اما ارتفاع السقف الداخلي عن الارضية الحالية للاروقة فهو ٦٨ ر٦ م (١) تحمله اعمدة قديمة يتكون كل منها من ثلاث قطع متعددة الطرز والاشكال معظمها مثمن ثبتت بسفافيد معدنية ويعلو هذه الاعمدة تيجان من ثماني مراوح نخيلية في اسفلها حلقة من اربع وعشرين ورقة صغيرة اسفلها شريط بارز مفتول ولبعض هذه الاعمدة تيجان منحوتة مع البدن عليها زخارف محفورة كما ان البعض الآخر خال من التيجان وهذه التيجان بعضها حميري قديم والبعض الآخر يرجع الى العصر الاسلامي .

ويحمل سقف المسجد اربعة وسبعون عمودا سنة وثلاثون منها في بيت الصلاة مرتبة باربعة صفوف موازية لجدار القبلة في كل صف منها تسعة اعمدة مكونة اربعة اساكيب وعشرة بلاطات اما المجنبتان ففي كل منهما ستة اعمدة بصفين عموديين على جدار القبلة وفي مؤخرة المسجد ستة وعشرون عمودا بثلاثة صفوف في كل صف منها تسعة اعمدة عدا الصف القريب من الجدار الجنوبي ففيه ثمانية اعمدة حيث شغلت المئذنة القديمة مكان العمود التاسع القريب من الزاوية الجنوبية الشرقية وتكون بمجموعها ثلاثة اساكيب وعشرة بلاطات .

وفي جدار القبلة محراب مجوف لايتوسط بلاطة المحراب وانما يقع خلف صف الاعمدة مباشرة . والى يمين المحراب منبر مجوف كذلك وهما مع الزخارف المحيطة بهما تحفة فنية رائعة .

يتكون المحراب من حنية مجوفة اعلاها مخوص على شكل مروحة نخيلية كبيرة شبيهة بعدد من المحاريب اليمنية مثل محراب الجامع الكبير في صنعاء ومحراب ضريح شمس الدين في كوكبان ومحراب الجامع الكبير في الروضة وهي من

---

(١) اشار Lewcock, ص ١١٨ الى ان ارتفاع الاعمدة ٨ م وهو غير صحيح .

الطراز السائد في المحاريب وواجهات العمائر خلال العصر الفاطمي في مصر ويدنو التجويف العلوى قوس بارز تفصل بينهما كتابة وتعلو حنية المحراب قوس مفصص بارز عن الجدار في وسطه خوذة (قبة) زخرفية نرى مثلها في كل من كوشتي العقد . وفي هذا القوس زهرة تتكون من اثنى عشر فص اسفلها زخرفة نباتية محورة عن الطبيعة . وعلى كل من جانبي حنية المحراب عمود جصي اسطواني الشكل يعلوه تاج جصي كذلك . ويحيط بهذا المحراب اطار عريض مزين بزخارف جصية نباتية وكتابات وكذلك المحراب والاجزاء المحيطة به .

اما المنبر المجوف فيقع الى يمين المحراب داخل الجدار الشمالي ويبرز من الخارج عن مستوى واجهة هذا الجدار والراجح ان هذا المنبر الحائطي هو اقدم منبر من نوعه في العصر الاسلامي اذ ان المنابر المعروفة منذ زمن النبي (ص) الخشبية منها والحجرية كانت بارزة عن الجدار الى يمين المحراب .

ويرتفع هذا المنبر قليلا عن ارضية المسجد ويعلو حنيته قوس مسنن في كل من كوشتيه خوذة (قبة) شبيهة بالتي على واجهة المحراب . اما داخل الحنية فاعلاها مخوص فتح في وسطها نافذة صغيرة يحيطها اطار جصي جميل لعلها تستخد كملقف لادخال الهواء الى الخطيب ولامداده بالضوء الكافي عند القاء الخطبة نهارا . وعلى جانبي حنية المنبر عمودين شبيهين بما وجدناه على جانبي المحراب .

ويعلو المنبر شريطان من الزخارف الجصية احدهما يتصل بالمحراب والثاني من كتابات نسخية يدور حولهما وفيه رف جصي جميل اضافة الى رف آخر غاية في الروعة والجمال .

المطاهيـــــر

وتقع مطاهير المسجد في الجهة الجنوبية منه خارج الرواق يؤدى اليها باب من الرواق الجنوبي قرب المئذنة وكان يؤدى اليها باب ثان في الجدار الغربـــي من المؤخـــرة .

المئذنـــــة

وتقع المئذنة الاصلية في الزاوية الجنوبية الشرقية داخل مؤخرة المسجد الا ان قسمها العلوى سقط في فترة متأخرة ولم يبق الا القاعدة الصلدة ببابها القائم في الجهة الشمالية منها داخل الرواق يؤدى الى اعلاها . والغالب ان المئذنة الحالية قد بنيت على غرار المئذنة القديمة .

وتقع المئذنة الحالية في الزاوية الجنوبية الشرقية خارج الجدار الجنوبي الذى يبعد عنها حوالي شبر واحد بناها السيد علي بن عبد القادر في بداية القرن العشرين بعد سقوط المئذنة الاولى (١) وتتكون من قاعدة مربعة بارتفاع جدار المسجد الذى يبلغ حوالي ٨ م ومبنية بحجارة مشابهة لحجارة الجدران وبالطزيقة المدرجـــة في البناء . فالقسم العلوى من هذه القاعدة مبني بالاجر ومزين بزخرفة مجذولة شبيهة بزخرفة القسم العلوى من جدران المسجد وبنفس الارتفاع اضافة الى الكتابات الكوفية المنحوتة بقطع الاجر وفي قاعدة المئذنة عدة نوافذ صغيرة فتحت لادخال الضياء الى درج المئذنـة .

ويقوم فوق القاعدة المربعة قاعدة اجرية اصغر حجما ذات عشرة اضلاع تبرز قليلا عن البدن الاسطواني القائم فوقها ويتوج القاعدتين شرفات مسننة مغطاة بالجص .

ويدور حول البدن زخارف معمولة بالاجر على شكل جامات واحزمة وكتابات قرآنية مغروزة في البناء .

ويعلو البدن شرفة المؤذن المزينة بالزخارف الهندسية ، يرتفع فوقها « الفحل » وهو اسطواني ايضا مبني بالاجر على شكل اشرطة عمودية تعلوها نوافذ صغيرة للاضاءة وعلى الفحل كتابات وزخارف مجذولة معمولة بالاجر ويتوج المئذنة قبة صغيرة مضلعة يعلوها سفود معدني فوقه كرتان معدنيتان . وهذه القبة شبيهة بالقباب التي انشأت في القاهرة في العصر الايوبي .

---

(١) محادثة شخصية مع احد المعمرين .

ولهذه المئذنة ثلاثة ابواب : الاول في الطابق الارضي في الجهة الغربية من من القاعدة . اما الباب الثاني فهو في اعلى القاعدة سدبالحجارة ويمكن الوصول اليه من سطح بناء ملحق بالمسجد من الجهة الغربية اما الباب الثالث فقد فتح في القاعدةذات العشرة اضلاع ويوصل اليه من سطح المسجد .

السقف

يتكونالسقف الخشبي الذى يغطي اروقةالمسجد من طبقتين يفصلهما فراغ . السقف العلوى منهما بسيط من الخشب العادى ومن فروع الاشجار (قصع) المرصوصة رصا متقنا فوق الواح خشبية لاتبعد عن بعضها اكثر من ٥ ر٣ م ومغطاة من الاعلى بطبقة طينية سمكها حوالي ٣٠ سم وضع فوقه طبقة من الواح حجرية رقيقة وقضاض . اما السقف الثاني (الداخلي) فمن خشب الساج المزخرف بانواع الزخارف التي اضفت عليه مسحة جمالية رقيقة شفافة ترجمت عمق الاحساس الفني المرهف ورقي الذوق والقدرة على الخلق والابداع .

وسقف بيت الصلاة يتكون من الواح خشبية محمولة على جوائز تقسمه الى مربعات كبيرة تبلغ الاثنين وعشرين مربعا كامل الزخرفة اضافة الى مربعين آخرين يقوم كل منهما مقام القبة حيث انهما اعمق من البقية ويقومان امام المحراب ويحيط بكل من هذه المربعات افريز من المقرنصات داخله وحدات زخرفية متعددة الاشكال محفورة وملونة بالالوان الاصلية التي تأثرت بفعل العوامل الطبيعية . وكل مربع في هذا السقف تختلف زخارفه عن باقي المربعات اختلافاً بيناً ومجنبات المسجد مغطاة بجوائز كبيرة تبعد عن بعضها حوالي نصف متر غطيت المساحة بينهما بحشوات زخرفية مربعة داخل اطارات غائرة .

وزخرفة سقف المسجد ناقصة غير تامة ولاندرى فيما اذا كان هذا شأنها منذ زمن بنائها او انها سقطت وتداعت بتقادم الزمن عليها . وتقتصرالزخرفة في الوقت الحاضر على سقف بيت الصلاة فقط رغم خلو قسم من هذا الرواق من الحشوات الخشبية المزخرفة .

الظواهر العمارية

واهم الظواهر العمارية في مسجد شبام تجسدت في تيجان الاعمدة المنحوتة على شكل مراوح نخيلية وهي نماذج متأخرة من الاصول القديمة ولعل سبب اتخاذها يعود الى التيمن باستخدام سعف النخيل وجدوعه في سقف واروقة مسجد النبي (ص) في المدينة كما ان البوائك الصماء التي تزين واجهات الصحن قديمة الجذور في العصر الاسلامي اذ انها زينت الواجهة الشمالية لقصر الاخيضر وفي باب بغداد في مدينة الرقـــة .

ولانجد في هدا المسجد كتابات معاصرة لتأريخ بنائه الاول ولعل الكتابات النسخية المحيطة بالمحراب ترجع الى مابعد الفترة التي عطلت فيها الصلاة زمن الايوبيين عندما هاجموا كوكبان في اواخر القرن السادس الهجرى (١٢ م) .

(المراجـــــــع)

١ — ابن حوفل (ابو القسم) : صورة الارض (بريل ١٩٦٧) .

٢ — ابن رستة (ابو علي احمد) : الاعلاق النفيسة (بريل ١٩٦٧) .

٣ — الحجرى (الحاج محمد) : مساجد صنعاء عامرها وموفيها (صنعاء ١٣٦١) .

٤ — العقيلي (محمد بن احمد) : من تأريخ المخلاف السليماني او الجنوب العربي (الرياض ١٩٥٨) .

٥ — مؤلف مجهول : تأريخ اليمن في الدولة الرسولية (طوكيو ١٩٧٦) .

٦ — الويسي (حسين بن علي) : اليمن الكبرى (القاهرة ١٩٦٢) .

٧ — الهمداني (ابو محمد الحسن بن احمد) : الاكليل ج ١٠ (القاهرة ١٣٦٨

٨ — : صفة جزيرة العرب (الرياض ١٩٧٤) .

٩ — ياقوت الحموى : معجم البلدان (القاهرة ١٩٠٦) .

١٠ — يحي (بن الحسين بن القاسم) غاية الاماني في اخبار القطر اليمانـــي (القاهرة ١٩٦٨) .

١١ — اليماني (تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد) : تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن في تاريخ اليمن (المخيمر ١٩٦٥) .

١٢ — عمارة اليمني (نجم الدين) : تاريخ اليمن المسمى المفيد في اخبار صنعاء وزبيد (القاهرة ١٩٧٦) .

13–Lewcock R. and Smith, G.R., Art. "Two Early Mosques in Yemen", Art and Archaeology Research Papers, Dec. 1973, PP. 117 ff